

موقف الشيخ أبي الحسن الندوي من الأفكار المعاصرة

(أعمال المؤتمر الدولي حول "موقف الشيخ الندوي من الأفكار المعاصرة دراسة مقارنة"
المنعقد في ٢٣-٢١ ربيع الثاني ١٤٣٥ هـ الموافق ٢٤-٢٢ فبراير ٢٠١٤ م
في رحاب مدرسة العلوم الإسلامية عليكره، الهند)

إعداد وتنسيق

د. محمد طارق الأيوبي الندوي

ملتزم النشر والتوزيع

مؤسسة العلامة أبي الحسن علي الندوي التعليمية والخيرية، عليكره، الهند

موقف الشيخ أبي الحسن الندوي من الأفكار المعاصرة

(أعمال المؤتمر الدولي حول "موقف الشيخ الندوي من الأفكار المعاصرة دراسة مقارنة"
المنعقد في ٢٣-٢١ ربيع الثاني ١٤٣٥ هـ الموافق ٢٢-٢٤ من فبراير ٢٠١٤ م
في رحاب مدرسة العلوم الإسلامية عليكره، الهند)

إعداد وتنسيق

د. محمد طارق الأيوبي الندوي

ملتزم النشر والتوزيع

مؤسسة العلامة أبي الحسن علي الندوي التعليمية والخيرية، عليكره، الهند

جميع الحقوق محفوظة
لمؤسسة العلامة أبي الحسن الندوي التعليمية والخيرية
الطبعة الأولى فبراير 2014م

إسم الكتاب :	موقف الشيخ الندوي من الأفكار المعاصرة
إعداد وتنسيق :	د. محمد طارق الأيوبي الندوي
الطباع والتصميم :	عبدالرحمن نعيم
عدد الصفحات :	٧١٢
عدد النسخ :	١٠٠٠
المطبع :	مطبع نعماني بلكتاؤ، الهند

Rs. 400/- INR

Dr. M. Tariq Ayubi Nadwi

Email-tariqnadwialig@yahoo.co.in

+919897776652, +919045794046

ملتزم النشر والتوزيع

مؤسسة العلامة أبي الحسن علي الندوي التعليمية والخيرية، عليكره، الهند

يطلب من:

- ١- دار الكتاب عليكره، الهند +919997665211
- ٢- مكتبة الشباب العلمية، لكتاؤ، الهند +919696437283

الإهداء

إلى

أمة الدعوة التي تحتاج اليوم إلى داعية يدرك أسباب
تدهورها وينتصر على ألامها ويجمع كلمتها ويريد بها
إلى سبيل العزة والكرامة أمثال هؤلاء الذين قضوا أنفُسهم
وأدواتهم حسب المستطاع ومنهم شيخنا العلامة
أبو الحسن الندوي رحمه الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة المنسق

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيد المرسلين وعلى اله وصحبه أجمعين! أبو الحسن الندوي عبقرية القرن العشرين، ومجدد هذا الدين، وشيخ الأمة ولسانها الناطق بالحق، وهو رجل المواقف العظام دفاعاً عن قضايا الأمة الإسلامية وصاحب مواقف جريئة وشجاعة جعلته من طليعة رواد المسلمين ومفكريهم في هذا العصر، وهو الداعية الفقيه، الأديب المتأدب بل عميد الأدب الإسلامي، صاحب الطراز الخاص والأسلوب الفريد، إنه رجل قرأني وأسدر باني حسب تعبير بعض المفكرين، ولما رحل شيخنا في أواخر ديسمبر سنة ألف وتسع مائة وتسع وتسعين قال بعض العلماء: "أن اكتمل عام الحزن" "والآن حين نقوم بذكري سماحته عن طريق أفكاره فقد اكتمل عليه قرن إذ أنه ولد في يناير 5 ديسمبر 1913، وكان رحمه الله يتخلق بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم مثل الرحمة والعتق والصفح واللين فيما بين المسلمين والشدة والغلظة ضد الباطل والطواغيت والجمع بين شعب الإسلام، فإنه يؤمن بأن الإسلام دين يشمل جميع جوانب الحياة وأنه يؤمن بحيويته وقدرته على التجديد والإصلاح والتغيير، إنه يؤمن بجانبه القيادي والسياسي والاقتصادي والعلمي، وفي كل من هذه المجالات له جولات وصولات، قضى حياته في خدمة الإسلام والمسلمين وجعل هدفه ما قاله الصديق الأكبر رضى الله عنه "أينقص الدين وأنا حي" وعمل طول حياته بوصية سيدنا إبراهيم "ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون" ولتبي دعوة ربه إلى التفكير الذي كان يشغل ذهن سيدنا يعقوب عليه السلام عند وفاته "ما تعبدون من بعدي" وكان رحمه الله نسيح وحده في الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وفاق أقرانه في الجمع بين العلم والأدب والأساليب العلمية والأدبية مع الدعوة إلى الله، والجمع بين السلوك والسياسة والقيادة والإصلاح، إن سماحته قضى نحبه وأوفى بعهده مع الله ورسوله وشريعته بالإخلاص الكامل، لقد شهد الزمان وشهد الناس أنه كان من أتقى العلماء وأخلصهم، وأبعدهم عن المادية والحرص على الثروة والشهرة والمناصب، ومن أرغبهم في السذاجة والتشغف، ومن أزهدهم في الدنيا مع جلالة شأنه العلمي والعلمي والديني، ومن أكثرهم تفكيراً وخوضاً في قيادة العالم الإسلامي وإصلاح المجتمع البشري----- فيا شيخنا أبا الحسن فقيده الملة الإسلامية كم نفقدك في هذه الأيام التي ضاع فيها الوفاء والإخلاص وعم التهالك على الثروات والمناصب وبقينا بمآتم على فقدان القيادة الإسلامية المخلصة المؤمنة المعتدلة الرحيمة في موقفها من المسلمين والجماعة

القاهرة في وقفها أمام الطواغيت والقوى الباطلة الهدامة الهاجمة على الإسلام
والمسلمين-----لقد صدق من قال وجزاه الله على هذا القول الصادق:

كم نحن يا شيخ الدعاة بحاجة	لك في زمان ضاع فيه وفاء
وغدا غريبا دين اشرف امة	من بعد أن حاقت به الارزاء
حتى له أبناءه قد حاربوا	وكأنهم عن دينهم غرباء
قد كنت دوما للحقيقة ناشدا	ماشاب سعيك ربية ورياء

نعم! إنه أبو الحسن الندوي--الداعية المخلص والمفكر العظيم، اختار موقف
الداعية وقام بدعوته للرجوع إلى الإسلام من جديد، له رحلات عديدة وجولات غرام من أقصى
الأرض إلى أقصاها وأعمال ضخمة وكتب قيمة وخطب فكرية تحمل نبرة واحدة "شعارنا
الوحيد إلى الإسلام من جديد"

نعم! إنه أبو الحسن الندوي رحمه الله، له موقف واضح من الأدب والتعليم ونقد
الحضارات، انه يؤمن باختيار الأسباب مع توكله الكامل على القدر المقدر في النتائج، كان
يقول: "إن العلوم الإسلامية علوم حية نامية، وإن منهاج الدراسة خاضع لنا موس التغيير والتجدد،
فيجب أن يتناول الإصلاح والتجديد في كل عصر ومصر، وأن يزداد فيه ويحذف منه بحسب
تطورات العصر، وحاجات المسلمين وأحوالهم" وكان عنده شعور مرهف بأهمية تربية
الطلاب في الجامعات العصرية تربية فكرية دينية قرآنية، والملحوظ أنه أنكر الثنوية في التعليم،
وفي أغلب الظن هو أول مفكر هتف قائلا: إنه لا مجال في هذا الدين للقسمة والتفريق والثنوية في
العلم، أشار بصراحة ولفت أنظار الأمراء وأصحاب التعليم إلى أن أكبر سبب للفساد الموجود في
المجتمعات المسلمة هو السقم والنقص في النظام التعليمي وتغريبه وتقليد النظام التعليمي
الغربي بأسره والاعتقاد أنه النظام التعليمي الناجح فحسب، هذا وإنه شعر بحاجة ماسة إلى
حصول طلاب العلم على الأدب والبيان واللغة، فقام بإعداد المقررات الدراسية للناشئين
والأطفال التي تولد ملكة أدبية لدى الطلاب مع تزويدهم بالخلق الإسلامية والعقائد الصحيحة
والتربية الفكرية، وأسس رابطة أدبية لإسلامية الأدب ومواجهة الأفكار الهدامة التي تدخل في
القلوب عن طريق الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة، ولقد أكد شيخنا الندوي أنه ينبغي
للدعاة والعلماء والمصلحين أن يزودوا أنفسهم باللغات ويعرفوا أهمية اللغة والبيان، ولقد أثبت
سماعته قوله بعمله من خطابه وكتابه بأسلوب رائع مؤثر بليغ-

إنه رأى سيطرة الحضارة الغربية وقوانينها على المجتمع والمعيشة والتعليم، فلم يدع إلى
ردها بأسرها ورفضها بكاملها مثل من لا يعرف الفرق بين الطيب والخبيث ولا يستطيع الفرق بين
الحسن والقبيح ومثل من لا يستطيع النظر إلى النور لفقدان بصارته فيهتف الظلام-الظلام وما

استقبلها مثل من يحتفى بكل جديد ويعيب كل قديم، يرحب كل ما كان حديثاً ويهجو كل ما كان عتيقاً، بل وقف موقف التحليل والتدقيق وموقف الحكيم الذى يأخذ كل ماصفاً ويترك كل ما كدر.

نعم! إنه أبو الحسن الندوى-- له منهج تحليلي وأسلوب حكيم فى عرض الدعوة الإسلامية، إنه يوم بالتصلب فى الدين والاعتدال فى العمل به، يؤمن بالوسطية فى الخلافات الفروعية والمناهج المختلفة للعمل فى الحياة البشرية ولكنه لا يصالح أبداً ولا يحب المصالحة أو رعاية المصلحة فى العقائد والأسس الإسلامية الثابتة، حتى أنه صار علامة الاتحاد، إنه اختار موقف الإمام السرهندي فى عرض الدعوة إلى الله وعمل بما اختار من موقف طول حياته بإلقاء الخطب وإعداد الكتب والرسائل الدعوية المؤثرة ونشر الأفكار الصحيحة الثابتة القوية ورحلات دعوية، خاطب الأمراء والسلاطين وكتب إليهم لرسائل المؤثرة المملوءة بالحكمة والدعوة ووجههم إلى الفكر الإسلامى والنظام الإسلامى ويمكن القول أن الشيخ الندوى كان يرصد ويتربص اللقاءات الخاصة والاجتماعات العامة لنشر الإسلام وعرض الفكر الإسلامى الصحيح والدعوة إلى الرجوع إلى الإسلام من جديد.

نعم! إنه مفكر إسلامي، المفكر الذى يعطي كل قضية من قضايا الأمة نصيبها من الاهتمام، بدأ حياته العلمية والدعوية بالعمل للدؤوب للصحوة الإسلامية، وقام بدور ملموس فى الصحوة الإسلامية الجديدة ونستطيع أن نقول: إن الأربعة من شخصيات القرن العشرين أثرت تأثيراً عميقاً فى المجتمع البشرى وتسببت فى الصحوة الإسلامية الجديدة، على رأسهم الامام البننا وبتلوه الأستاذ الشهيد السيد قطب والأستاذ أبو الأعلى المودودي والإمام الندوى رحمه الله وإن جميع هؤلاء طالبوا المسلمين أن يمتثلوا للإسلام بكامله ولا يختاروا جزءاً دون جزء يقول الله جل جلاله "أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض" إلا أنهم (أي هؤلاء الأربعة المذكورين) اختلفوا فى بعض الأفكار والمناهج، ومن توسع الإمام الندوى أنه اعترف بكل حركة وجماعة إسلامية وصرخ بإفادتها فى كتاباته وأقر لها أنها عاملة للصحوة الإسلامية، وداعية إلى الإسلام وقيمه وحضارته، وإن اختلف مع بعض منها فى بعض الأشياء فأوضح موقفه فى ذلك الأمر من غير أن ينكر جميع منجزاتها وخدماتها بل سلك طريق التعاون على البرمع الإغذار فى الأمور الخلافية.

نعم! إنه مفكر إسلامي ذو فكر بالغ وشعور مرهف وقلب حنون وضمير واع ومعرفة عميقة بالتاريخ والديانات والحضارات والأقوام، فكيف يمكن له أن يرى السياسة رجساً من عمل الشيطان ويتصورها الشجرة الممنوعة مع أنه يؤمن بأن الإسلام يشمل جميع جوانب الحياة وكيف يمكن له أن يرى السياسة منكراً مع أنه يؤكد على ضرورة قيادة الإسلام للعالم ويشتاق إلى أن تكون كلمة الله هي العليا كما أكثر ما يشتاق الانسان إلى شيء، يحبه من زينة الدنيا وزخرفها وأموالها ومناصبها.

ولكنه ما اختار موقف من يتوغل في السياسة ويأخذ كل رطب ويابس وطيب وردي، لأنه يتصور السياسة أكبر سبب للرقى والازدهار والسلطة، وكذلك ما سلك طريق الحائر بين النور والظلام بل إنه أُرشد إلى الصحيح والصواب وفرق بين الحق والباطل ونبه الحكام إلى الفرق بين الهداية والجبابة وأرشدهم إلى الطريق الإسلامي القويم في السياسة. كان يرى السياسة وسيلة للإصلاح، إصلاح الحكم، وإصلاح النظام الاجتماعي والاقتصادي والتعليمي وإصلاح المجتمع البشري حتى أنه قال في إحدى خطبه في دولة باكستان: إن الإسلام في أشد حاجة إلى استيلاء لأنه لا يمكننا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدون الاستيلاء الذي هو مطالب في الآية الكريمة بتضمينها الأمر والنهي. اختار موقف المصلح لإصلاح السياسة والسياسة فالف أشهر كتابه "ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين" ودعا العرب من خلال هذا الكتاب ان يعرفوا مقامهم ويرجعوا إلى شأنهم وويقوموا بتحليل دقيق في استيراد ما تصدره الحضارة الحديثة وينتقلوا من الصراعات القبلية والعنصرية إلى الوحدة الإسلامية ومن نظام قبلي أو عنصري أو غربي إلى النظام الإسلامي الكامل وينتقلوا من الاحتلال إلى الاستقلال ثم الفتوح ويأخذوا شأنهم القيادي ويسوسوا العالم بمكانتهم التي منحهم الله تعالى باختيار جزيرة العرب لبعثة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ويقتضي هذا أن يزينوا أنفسهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وبحمل رسالته الخالدة السائدة الرائدة القوية الأبدية التي يمكن باتخاذها مأخذاً ومصدراً ومرجعاً ومنهجاً النجاح في السياسة والحكم وقيادة العالم وإصباغه بصبغة الإسلام من الأمن والسلام.

وينشد دائماً بيت محمد أقبال بل جعله عنواناً لخطبه في البلاد العربية -

کے یہ کافر ہندی بھی جرأت گفتار
اگر نہ ہو امراءِ عرب کی بے ادبی
یہ نکتہ پہلے سکھایا گیا کس امت کو
وصال مصطفوی، اترتاق یو لہبی
نہیں وجود حدودِ ثغور سے اس کا
محمد عربی سے ہے عالم عربی

"إنه لا يتم الاتصال بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا بانقطاع أبي لهب، وإنه لا يصح الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت، كذلك لا تتم الفكرة الإسلامية إلا بإنكار القوميات والوطنيات والفلسفات المادية، إن العالم العربي أيها السادة! لا يتكون ولا يظهر إلى الوجود بالثغور والحدود، إنما يقوم على أساس هذا الدين الإسلامي وعلى الصلة بمحمد صلى الله عليه وسلم -

وجه الشيخ ومن بواعث الأسف أن عامة الناس أصغوا إليه بسامع قلوبهم قبل أذانهم ولكن لم يعمل بما دعا إليه أصحاب الحكم والسلطة إلى العرب دعوته في خطبه التي نشرت في رسالة بعنوان "احاديث صريحة مع إخواننا العرب" وكتب سلسلة "الاسمعيات" الدعوية التي تشتمل على كتابات بعنوان اسمعي يا مصر واسمعي يا إيران واسمعي يا زهرة الصحراء، وجه نداءه إلى العرب وحكامهم هكذا:

فهيهو انفسكم للجهاد والدعوة وإذا قلتم أمانة فأحسنوا القيام عليها، هذه وصيتي لكم ، وربما لا تقيمون وزنا لها ولكنكم ستذكرون ذلك في المستقبل "فستذكرون ما أقول لكم وأفوض امرى إلى الله إن الله إن الله بصير بالعباد- غافر- ٢٢) ألف كتابه سيرة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد في تاريخ دعوته كما ألف كتابه رجال الفكر والدعوة في تاريخ الدعوة والكفاح عبر العصور، وقام بجولات دعوية ألقى فيها خطبا توجيهية نشرت بعناوين مختلفة مثل "حديث بورما" و"حديث كاشمير" "نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان" إنه ما جلس منهزما ومتعابلا سافرا وسافرا راجيا رحمة الله ودعا الناس بقوة وتأثير عميق، كان مفكرا لا يشغله هم عن هم، وألم عن ألم، وأسف عن أسف، ولا تشغله قضية عن قضية ومهمة عن مهمة فكان يتناول القضايا كلها في وقت واحد لقضايا الأسرة بل قضايا الأمة المسلمة العالمية وكان لسان الأمة الناطق بالحق الذي لا يعرف لغة السياسة واللباقة بل يجهر بالحق بدون أن يترك الحكمة الدعوية، وكان يستنفذ طاقته في عرض الحلول لقضايا الأمة المسلمة.

نعم! إنه مفكر إسلامي يتأثر بكل كارثة المسلمين ويتألم بأوضاعهم الراهنة المتدهورة، ويتناول القضايا والمشكلات المحلية والعالمية ويعرض الحلول لها، تارة يختار موقف الحوار والمصالحة وتارة يحرك النفوس ويجمعهم على كلمة، أما موقفه من قضية فلسطين كارثة المسلمين جميعا، فكان سماحته أعلن بصراحة أنها لا تنحل إلا بجهاد وقوة إيمانية، إنها تحتاج إلى رجل يجعلها قضيته الشخصية قياما وقعودا ومناما وصحوا، وصرح أنها لا تنحل إلا بقوة مؤمنة مخلصه وجهود إيمانية جبارة ولا تنحل بالحوار والسياسة واللباقة أبدا.

نعم! إنه مفكر قام موقف القائد المخلص الحكيم عقب كل فتنة ومصيبة وبلاء ودسياسة محلية أو دولية، شاهده التاريخ في موقفه من خضوع العرب وتقليدهم للغرب، وفي موقفه من الحركات العربية الهدامة ومن النظام الاقتصادي والتعليمي الغربي وفي موقفه من الأحوال الشخصية للمسلمين في الهند واختلاط الحضارات فيها وفي البلاد العربية وفي موقفه من العبادة والسياسة والسلوك والأدب والتاريخ والإصلاح.

نجح في إنشاء جمعية "الرسالة الإنسانية" في بلادنا الهند الذي كان مناوئا لحركة إحياء التطرف الهندوسى بين كثير من الهندوسين وانضم إليها كثير من الهندوس ومن اصحاب الدعوات والديانات المختلفة وأهل المناصب وغيرهم، ولقيت هذه الحركة في الهند تجاوبا واسعا ونجاحا كبيرا، مع كل ذلك حينما عبر في أحد اجتماعاتها أحد من غير المسلمين عن رأي تؤيد وحدة الأديان رد عليه الشيخ ردا واضحا وصرح بأن الإسلام هو الطريق الوحيد لمعرفة الله عز وجل حسب قول الله عز وجل: "وأن هذا صراطى مستقيما"

لقد سرى الإسلام في دمه ولحمه وتغلغل في أحشائه فأخرج كل ما أخرج من الأفكار والإنتاجات من الإسلام وللإسلام، ومختصر القول أنه ولد للإسلام ومات للإسلام، فيا

أهل الحسن طبت حيا وطبت ميتا، فيا من فقدنا بفقدانك القيادة المؤمنة الداعية المخلصة، ياليت ذكراك تكون مبدأ الصبح الجديد للإسلام والمسلمين

"وما احسن ما وصفه به ريحانة عصرنا العلامة الشيخ القرضاوى حفظه الله وأطال بقائه، قال: "واتاه الله القلب الحي والعاطفة الجياشة بالحب لله العظيم ولرسوله الكريم ولدينه القويم فهو يحمل بين جنبيه نبعا لا يفيض وشعلة لا تنخبو وجمرة لا تتحول إلى رماد. ويقول الدكتور عبد القدوس أبو صالح حفظه الله تعليقا على هذه القطعة "هذا القلب الذى يعيش مع الله فى حب وشوق راجيا خائفا، راغبا رهابا، يحذر الآخرة وير جور حمة ربه، كما يعيش فى هموم الأمة على اتساعها ويحيا فى الامها وامالها، لا يشغله هم عن هم ولا بلد عن آخر ولا فئة من المسلمين عن الفئات الأخرى-

ويسرنى الآن أن أقدم بين يدي العلماء وأصحاب الفكر مجموعة البحوث المطروحة إلى المؤتمر العالمي حول "موقف الشيخ الندوى من الأفكار المعاصرة، دراسة مقارنة". وأعتقد أن هذه المجموعة تتميز عن جميع الأعمال السابقة التى تتعلق بالشيخ الندوى وحياته ومنجزاته، لأنها متنوعة من حيث الفكر والمواضيع والمحتوى، ويستوعب جوانب من شخصيته وتحيط بإنجازات الشيخ الندوى فى مجال العلم والأدب والدعوة واللقاءات والرحلات وإلقاء الخطب فى بلاد شتى، ومنعتنى ضخامة الكتاب أن أقدم إلى القراء الكرام جميع البحوث فى صورتها الأصلية التى أعدها الباحثون فرأيت من المناسب الإعداد والترتيب والحذف لبعض الاجزاء من المقالات وشارك فى هذا العمل زميلنا الأستاذ الأخ محمد غزالي الندوى، فحذفت من جميع المقالات قطعات تشمل على بيان سيرة الشيخ الندوى كما حذفت القطع التى تشير إلى ركائز فقه الدعوة عند الشيخ لأن الشيخ العلامة يوسف القرضاوى حفظه الله قدمها بتوضيح كامل وحللها تحليلا شافيا، ويستطيع أن يراجع القارئ كتاب الشيخ القرضاوى لتناول التفاصيل لركائز فقه الدعوة عند الشيخ-

وتحيط هذه المقالات عدة جوانب حياة الشيخ أبى الحسن، وهي مقدمة إلى المؤتمر ضمن ثلاثة محاور المقررة،

1. موقف الشيخ الندوى من عرض الدعوة الإسلامية ونقد الحضارات
2. موقف الشيخ الندوى من السياسة المعاصرة والعالم الاسلامى
3. موقف الشيخ الندوى من الأدب والتعليم والتزكية

وإننى إذ أقدم هذه المجموعة بين يدي القراء أوجه شكرى وتقديري إلى الباحثين المحترمين الذين اعتنوا بجمع جوانب مختلفة من حياة الشيخ ومنجزاته وقد موا كتابات قيمة. وبهذه المناسبة أشكر الله جل وعلا على أنه وفقنا لعقد هذا المؤتمر المبارك المهم وإنجاز هذا العمل العلمي المتميز وأشكر جزيل الشكر جميع من شار كوافى هذا المؤتمر بورقة

علمية وواجهوا مشاق السفر على دعوة متواضعة من عبد ضعيف وأهنيء جميع موظفي مؤسسة العلامة ابي الحسن علي الندوي التعليمية والخيرية ومن يتعلق بها، وأشكر على وجه خاص سعادة الأستاذ كمال أختر الندوي، والأستاذ الطيب محمد غياث الصديقي الندوي، والأستاذ الدكتور مسعود خالد الذين بذلوا جهوداً جبارة في تنظيم هذا المؤتمر وإزالة كل عائق دونه، وبخاصة أرفع اسمي معاني الشكر والتقدير إلى الأستاذ محمد كمال أختر الندوي الذي لم يدخر وسعاً في دعم هذا المؤتمر، فجزاهم الله أحسن الجزاء.

وفي الأخير أريد أن أوضح أن هذه المجموعة لقد طبعت في عجلة بالغة ولذلك يمكن أن توجد فيها أخطاء، فإني مسؤول بالأخطاء، وستكون الطبعة الثانية منزهة من الأخطاء كما اردت أن تشمل المجموعة ترجمة المشاركين وجميع تفاصيل المؤتمر في طبعتها الثانية، وأدعو الله أن يتقبل منا هذا العمل ويثبت لنا أجره ويوفقنا للطبعة الثانية في أقرب فرصة ونشر فكر الإمام الندوي كاملاً.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

د. محمد طارق الأيوبي الندوي

مركز الثقافة والتحقيق، عليه كره

٢٠١٤/٢/١٨ م

شَيْخِ الدُّعَاةِ

الأستاذ ابورياش - عمان

شَهِدْتَ لَكَ الْأَفْذَاذُ وَالْعُلَمَاءُ
 بُلُغْتَ يَا بَحْرَ الْعُلُومِ مَكَانَةَ
 هَذَا مَقَامِكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ اعْتَلَى
 يَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْمُسَحَّى فِي الثَّرَى
 هَلْ ذَلِكَ الْحَسَدُ الطَّهُورُ تَفَرَّقَتْ
 أَمْ أَنَّهُ مَا زَالَ غَضًّا يَانِعًا
 أَنْفَقْتَ عُمْرَكَ قَائِدًا وَ مُجَاهِدًا
 وَقَضَيْتَ دَهْرَكَ وَإِعْظًا وَ مُؤَدِّبًا
 زَانِتِكَ يَا ابْنَ الطَّيِّبِينَ فَضَائِلُ
 قَدْ كُنْتَ دَوْمًا لِلْحَقِيقَةِ نَاشِدًا
 وَنَذَرْتَ نَفْسَكَ فِي سَبِيلِ رِسَالَةٍ
 قَدْ صَانَهَا مِنْ قَيْلِكُمْ أَجْدَادُكُمْ
 لِلَّهِ وَالْإِسْلَامِ كُنْتَ مُجَنِّدًا
 وَمَضِيَّتَ فِي دَرْبِ الدُّعَاةِ وَنَهَجِهِمْ
 مُذْ قَدْ نَشَأَتْ حَمَلَتْ هَمَّ غُرُوبَةٍ
 فِيهَا تَرَبَّصَ كُلُّ عِلْجٍ حَاقِدٍ
 فَالْعَرَبُ يُعْلَمُ أَنَّ فِي إِسْلَامِنَا
 فَتَحَزَبُوا وَتَأَلَّبُوا وَتَلَبَّبُوا

وَتَصَوَّعَتْ مِسْكَاً بِكَ الْأَرْجَاءُ
 مَا حَازَهَا الْكِبْرَاءُ وَالْعُظَمَاءُ
 وَكَأَنَّهُ فَوْقَ الْأَنَامِ سَمَاءُ
 مَنْ مِنْكُمْ قَدْ مَسَّهُ الْإِفْتَاءُ
 أَجْرَاؤُهُ وَأَقَامَ فِيهِ فَنَاءُ
 مَا مَسَّهُ تَلَفٌ وَلَا إِعْيَاءُ
 أَسَدًا تَهَابُ نِزَالَهُ الْأَعْدَاءُ
 وَ مُفَكَّرًا دَانَتْ لَهُ الْأَدْبَاءُ
 وَخَصَائِلُ وَ شَمَائِلُ غَرَاءُ
 مَا شَابَ سَعِيكَ رِيَّةً وَ رِيَاءُ
 فِيهَا لِمَنْ يَبْغِي النَّجَاةَ غَنَاءُ
 وَبِهَا تَمَسَّكَ أَلَكَ الشَّرَفَاءُ
 لَمْ يَشْنِ عَزْمَكَ أَوْ يَهِنِكَ عَنَاءُ
 فَتَعَلَّمْتَ مِنْ فِكْرِكَ الْحُكَمَاءُ
 قَدْ مَرَّقَتْهَا الْفِتْنَةُ الْعَمِيَاءُ
 وَبَعَى عَلَيْهَا الشَّرُّ وَاللُّخَلَاءُ
 مَا إِنْ تَمَسَّكْنَا بِهِ اسْتَعْلَاءُ
 وَلَهُ بِكُلِّ قُوَى الضَّلَالِ أَسْأُؤُوا

وَعَلَى الْجَبِينِ عَزِيمَةٌ وَمَضَاءُ
 تُذْعِنُ وَإِنْ عَصَفَتْ بِكَ الْأَنْوَاءُ
 لِلنَّاسِ كَانَ بِهِ هُدًى وَسَنَاءُ
 مَا شَابَهَا زَيْفٌ وَلَا أَهْوَاءُ
 كَيْمَا تُرْفَرُ رَأْيُهُ الْعَلِيَاءُ
 حَقًّا هُمْ الْأَخْيَارُ وَالْأَبْنَاءُ
 لَمْ تُلْهِهِمْ عَنْ غَيْرِهِ أَشْيَاءُ
 وَمُؤَلَّفَاتٍ مَا لَهَا إِخْصَاءُ
 مَا فِيهِ حَقًّا لِلرَّوَى إِتْرَاءُ
 وَتَفَقَّهُ الْأَقْطَابُ وَالتَّجْبَاءُ
 وَلَهُمْ سَنَاءٌ مُشْرِقٌ وَضَاءُ
 لَكَ فِي زَمَانٍ ضَاعَ فِيهِ وَقَاءُ
 وَتَنَاءَتْ فِي سَاحِجِ الْأَشْلَاءُ
 مِنْ بَعْدِ أَنْ حَاقَتْ بِهِ الْأَرْزَاءُ
 وَكَأَنَّهُمْ عَنْ دِيْبِهِمْ غُرْبَاءُ
 كَيْفَ اذْلَهَمَتْ حَوْلَنَا الْأَجْوَاءُ
 مِنْ نُورِهِ قَدْ تُشْرِقُ الظُّلْمَاءُ
 وَمَدَائِحُ وَقَصَائِدُ عَصَمَاءُ
 مَاذَا يَقُولُ بِمَدْحِكَ الشُّعْرَاءُ

فَوَقَفْتَ يَا شَيْخَ الدُّعَاةِ بَوَجْهِهِمْ
 جَادَلْتَهُمْ يَا شَيْخُ بِالْحُسْنَى وَلَمْ
 كَمْ مَنْصُوبٍ قُلْدَتُهُ وَسَغَلْتُهُ
 أَدَيْتَ فِيهِ أَمَانَةً وَحَمَلْتَهَا
 وَنَهَضْتَ بِالْإِسْلَامِ تُعَلِّي رُكْنَهُ
 أَسَسْتَ رَابِطَةً لَهُ أَعْضَاؤُهَا
 بَدَلُوا لَهُ الْعَالِي التَّفَيْسَ وَأَخْلَصُوا
 أَصْدَرْتَ كُتُبًا فِي الْحَدِيثِ رَوَائِعًا
 وَطَرَحْتَ فِيهَا مِنْ بَدَائِعِ فِكْرِكُمْ
 مِنْ بَحْرِكُمْ تَهَلَّ الدُّعَاةُ عُلُومُهُمْ
 خَرَجَتْ أَجْيَالًا لَهُمْ بَصْمَاتُهُمْ
 كَمْ نَحْنُ يَا شَيْخَ الدُّعَاةِ بِحَاجَةِ
 فِي عَالَمٍ فِيهِ الْأَوَاصِرُ قُطِعَتْ
 وَغَدَا غَرِيبًا دِينَ أَشْرَفِ أُمَّةٍ
 حَتَّى لَهُ أَبْنَاؤُهُ قَدْ حَارَبُوا
 قُمْ يَا أَبَا الْحَسَنِ التَّدْوِي لِكَيْ تَرَى
 فَلَعَلَّ بَعْضَ حُضُورِكُمْ وَمُرُورِكُمْ
 شَيْخَ الدُّعَاةِ وَهَلْ تَفِيكَ قَلَائِدُ
 يَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ مَقَامُهُ

الشيخ أبو الحسن الندوي، حكيم الوسطية

أ.د. حسن الأمrani
 أستاذ الأدب والنقد بجامعة الشارقة
 الإمارات العربية المتحدة

يتناول هذا البحث بعضاً من مظاهر الوسطية، باعتبارها منهجاً اتصف به الشيخ أبو الحسن الندوي في حياته فكراً وسلوكاً.

وسأرصد هذه الوسطية من خلال المحاور الآتية:

- 1 — الوسطية في السلوك
- 2 — الوسطية في العبادة
- 3 — الوسطية في الأدب والثقافة.
- 4 — الوسطية في السياسة
- 5 — الوسطية في الدعوة
- 6 — الوسطية في الموقف من الحضارة الغربية

استهلال: في مفهوم الوسطية

في الصحاح للجوهري (مادة: و.س.ط.): كل موضع صلح فيه "بين" فهو وسط، بتسكين السين، وإن لم يصلح فيه "بين" فهو وسط، بالتحريك. فالوسط، بالتسكين، يكون بين شيئين، وأما الوسط، بالتحريك، من كل شيء فهو أعدل. ومنه قوله تعالى: (قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون) "القلم: 28"، أي أعدلهم. وقال تعالى: (وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً) "البقرة: 143"، أي عدلاً، فهي أمة العدل. ويقال: فلان وسيطٌ في قومه، إذا كان أوسطهم نسباً، وأرفعهم محلاً. ويقال أيضاً: شيءٌ وسط، أي بين الجيد والرديء.

وقال الراغب في مفرداته، مادة: (و.س.ط.): "وسط الشيء ما له طرفان متساويا القدر. ويقال ذلك في الكمية المتصلة كالجسم الواحد إذا قلت وسطه صلبٌ وضربت وسط

رأسه بفتح السين. ووسطٌ بالسكون، يقال: في الكمية المنفصلة كشيء يفصل بين جسمين نحو وسط القوم كذا. والوسط تارة يقال: فيما له طرفان مذمومان. يقال: هذا أوسطهم حسباً إذا كان في واسطة قومهم، وأرفعهم محلاً، وكالجود الذي هو بين البخل والسرف فيستعمل القصد المصون عن الإفراط والتفريط، فيمدح به نحو السواء والعدل والنصفة، نحو: "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً" (البقرة: 143) وعلى ذلك: "قال أوسطهم" (القلم: 28)، وتارة يقال فيما له طرف محمود ومذموم كالخير والشر ويكتفى به عن الرذل، نحو قولهم: فلان وسط من الرجال تنبهاً أنه قد خرج من حد الخير."

ومن النصوص الدالة على أن (أوسط الناس نسباً أشرفهم) ما جاء في الكامل للميرد (4_365)، من رسالة بعث بها محمد بن عبد الله الحسيني إلى المنصور: (فأنا أوسط بني هاشم نسباً، وخيرهم أمماً وآباً).

واستثناساً بالمعنى القرآني لا يكون الشيء وسطاً إلا إذا كان عدلاً، والنسبة وسطية، وعلى هذا فالوسطية هي فضيلة بين رذيلتين، والاعتدال ما كان بين الإفراط والتفريط، ولكن هذا لا يعني أن الوسطية تعني الوقوف بين شيئين، فليس هنالك توسط بين الخير والشر، ولا بين الثور والظلام، ولا بين الفجور والتقى، ولا بين الإيمان والكفر. والوسطية هنا، أي العدل، يقتضي الصدق بالحق واتباعه، وما سواه هو الهوى الذي فهينا عن اتباعه واتخاذهُ رباً.

وحين يستقيم مفهوم الوسطية في وجدان المؤمن، ويخالط شغاف قلبه، يصطبغ كله ذاتاً وفكراً وسلوكاً بهذه الوسطية، فتعكس على حياته كلها، وهو يردد قول الحق سبحانه: (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) "الأنعام: 163". وهذا تحقق الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى، فصارت الوسطية عنده منهجاً وسلوكاً انعكس على كل حركاته وسكناته. ونحن نريد أن نتلمس ذلك من خلال بعض المظاهر المحددة.

1 - الوسطية في السلوك: عاش الشيخ أبو الحسن في الهند، وهي مجمع الديانات والمذاهب المختلفة، وعاش مع فئات من ذوي هذه المذاهب، من مسلمين وهندوس وسيخ ونصارى وغيرهم، وكان بعض هذه المذاهب يوغل في تعذيب الذات مما يراه تقرُّباً إلى الله

تعالى وتبتلاً. (وقد رأينا مظاهر غريبة وعجيبة لهذا التبتل، ولتلك الرهبانية، فالبعض منهم تجنب الاغتسال طول عمره، والآخر لا يرتدي إلا المسوح والثياب الخشنة، ومن كان يعيش عريانا حتى في موسم البرد القارس، وآخر يجهد نفسه بالتعبد قائما في الحر الشديد طول عمره، لا يتحرك من مكانه، ومنهم من كان يعتزل الناس، ويغادر إلى كهف أو غار، ويلزمه لا يبرحه أبدا طول حياته، وآخر يحلف ألا يأكل إلا أوراق الشجر طول حياته، ومنهم من كان يعيش حياته كلها متبتلا بعيدا عن الزواج والنساء، ويرى قطع التماسل من العبادة المقربة، وآخر يرفع إحدى يديه في الهواء ويعذبها طول عمره حتى تجف، ومنهم من كان يعتقد أن حبس النفس من العبادة، والآخر يعلق نفسه في شجرة رأسا على عقب.

هذه هي أفضل صور وأشكال العبادات الراقية المتطورة المقربة إلى الله، وأعظم وسيلة لترقية النفس وتطهير الأرواح قبل الإسلام. فلما جاء الإسلام حرر الإنسانية من هذه الأغلال والسلاسل والمصائب، وأنجأها من جميع أنواع التعيب والإيذاء، وبين لها أن هذه المظاهر ليست إلا ألعابا بدنية، وأصنافا من المسرحيات الجسمية، وأن الله عز وجل لا ينظر إلى قالب الإنسان كم تعذب، وكم تحمّل من المشاق، وإنما ينظر إلى القلوب، فلا يكلف نفسا فوق طاقتها، وهذا ما صرح به القرآن الكريم إذ قال: (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) "البقرة:286"، وأعلن بأعلى صوت: إن هذه الرهبانية ليست إلا ابتداعا واختلاقا من عند أنفسهم، ما أنزل الله بها من سلطان، قال تعالى: (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم) "الحديد: 27"(1)

عاش الشيخ أبو الحسن وسط كل تلك التيارات والمذاهب، ولكنه تسربل بالوسطية الإسلامية، فتحقق بذلك سلوكا، ولم يتأثر بشيء من أخلاط المذاهب والنحل، كما حدث لبعض المسلمين في الهند، حتى ابتدعوا في الدين ما ليس فيه، بل انسلخ بعضهم عن الإسلام تماما، كما هو شأن البابية والبهائية والقاديانية. لقد تحقق الشيخ أبو الحسن بروح الإسلام، فعصمه الله تعالى من الشطط، ومن الميل إلى الإفراط أو التفریط، فهو يعيش حياة الزاهدين، ولكنه يعيشها مع الناس ولا يعتزلهم، فيكون سلوكه بذلك قدوة وأسوة ودعوة. لا يحرم على نفسه ما أحله الله تعالى، ولكنه يؤثر حياة السابقين من أهل الخير، في الميل إلى الزهد والرضا

بالكفاف والعفاف والغنى عن الناس. يحضر المؤتمرات العالمية، ويترل الناس في الفنادق الفخمة، ولكنه يؤثر أن يترل في بيوت البسطاء من أهل الهند، ولاسيما من أتباع جماعة التبليغ. (2)

ومن مظاهر الوسطية في السلوك ما عُرف به رحمه الله من لين الجانب، ورقة القلب، والتواضع مع الناس جميعا، وليس مع المسلمين وحدهم. ولكن ذلك كله لا يصرفه عن الجهر بالحق في المواطن التي تستوجب ذلك، فهو إذا انتهكت حرمة من حرمت الله تحول أسدا هصورا يزأر، ويستوي في ذلك أن يكون امام الحكام وأمام الرعية.

يقول د. محمد اجتباء الندوي عن أبي الحسن: (لم يكن يهمله العيش الرغيد، والطعام اللذيذ، (3) والفرش الناعم الوثير، كان يجلس على الحصير، ويأكل الخشب، ويلبس الخشن، ينام قليلا ويسهر كثيرا، كانت حياته كلها جهادا، وكفاحا، ومثابرة، وثباتا. كان جريئا في الحق، ومقداما في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وصريحا في تقديم قضية الإسلام ورسالته ومبادئه وقيمه، قويا في التكلم في أمور المسلمين أمام الملوك والأمراء والحكام، ولكن بلين ورفيق، وتهذيب وادب، وخلق ونبل. (4).

والذي يطالع كتابه (في مسيرة الحياة) يجد مجموعة من المواقف التي تؤكد هذا الكلام. ولكني أحب أن أسوق شهادة بما رأيت، فقد زرت الشيخ أبا الحسن في قريته (رائي بريلي) ورأيت كيف يعيش عيشة ما لبثت أن تذكرت معها كلمة الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة: "اجلس بنا نؤمن ساعة"، وأعتقد أن كل من زاره في بيته المتواضع يتذكر حياة الصحابة الكرام، وهذا ما ذكره لي أيضا الدكتور حيدر الغدير يوم زيارته له، فقد أحسُّ بالشعور نفسه. وقد قلت في نفسي يومذاك: أهذا الشيخ الزاهد هو نفسه الذي يهابه الحكام ويضربون له ألف حساب؟

لم يكن الشيخ أبو الحسن متحققا بالوسطية في سلوكه الفردي فقط، بل جعل ذلك من جوهر دعوته، داعيا المسلمين إلى التحقق بهذه الوسطية، ممثلا لذلك بما يناسب من الأمثلة. ففي شهر يناير من عام 1986 تأسست في مقر ندوة العلماء — دار العلوم، بلكنهو، رابطة الأدب الإسلامي، وقد كان ذلك اليوم مشهودا، وشارك فيه الأساتذة الضيوف من الهند ومن خارجها، كما شارك أساتذة دار العلوم، بكلمات قيمة، وقصائد معبرة، وكان لتلاميذ الدار

وطلبتها مشاركات أيضا، وكانت لغة المؤتمر هي العربية، بالإضافة إلى أنه أنشدت قصائد باللغة الأوردية، لغة المسلمين في عموم الهند، وما زلت أذكر تلميذا لم يجاوز سن الطفولة آنذاك، واسمه محمد إسماعيل، (وقد علمت من بعض زملائه أنه صار اليوم أستاذا نبيها)، ينشد بصوت شجي قصيدة إقبال الرائعة: (دعاء طارق). وقد أشاد الأساتذة الضيوف بندوة العلماء التي أثبتت أنها قلعة للعربية في القارة الهندية (وقد أشاد بذلك الشيخ أبو الحسن في كتابه: في مسيرة الحياة، 160\2). إلا أن الدكتور محمد علي الهاشمي ألقى كلمة، وبعدهما حيي القيمين على ندوة العلماء وأشاد بفضلهم قال كلاما مفاده ما يلي: (نحن الآن رأينا الصورة، ونرجو أن تكون الحقيقة مطابقة للصورة. فليس المهم أن تكون الصورة جميلة بقدر ما هو مهم أن تعبر عن الجوهر، وأن يكون الجوهر سليما)، ولم يكده ينهي كلمته حتى كانت توزع علينا رسالة لطيفة للشيخ أبي الحسن، وهي رسالة صغيرة الحجم كبيرة الفائدة، وعنوانها: (الصورة والحقيقة)، وعجبنا لنباهة المنظمين من جهة، ولسبق أبي الحسن إلى معالجة الموضوع في رسالة من جهة أخرى. وقد كان هذا دأبه في كل مجلس وفي كل آن: التركيز على الجوهر لا على الصورة، وهو بذلك يستوحي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم). (رواه مسلم)

ولقد كانت للشيخ أبي الحسن كلمة أخرى تدل على المعنى نفسه سمعناها منه كثيرا، ودونها في بعض كتبه، وهي ضرورة العناية بالقيمة لا بالقامة. يقول في كتابه (في مسيرة الحياة: 76/2): "ليست العبرة بالقامة والحجم والكثرة، وإنما العبرة بالقيمة. هناك شيخان يوزنان: القامة والقيمة، ولكن الله سبحانه وتعالى فضل القيمة على القامة. إنني كلما أقرأ الآيات الأخيرة من سورة الأنفال، عجبت وعجبت وكدت أبحار وأغلب على أمري، إذا قرأت قول الله تعالى: (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)" (الأنفال: 73).

لمن يقال هذا؟ لهذه الحفنة البشرية التي تألفت من المهاجرين والأنصار، تألفت من الأنصار أصحاب الدار ومن المهاجرين المغتربين، الذين لم يتجاوز عددهم خمسمائة وألف.. ما نسبة هذه القلة القليلة التي كانت تعيش في يثرب التي سميت بعد ذلك بمدينة الرسول

صلى الله عليه وسلم، ما وزن هذه القلّة وما عدد أفرادها؟ ما وزن هذه القلّة في الميزان السياسي، وفي الميزان الدولي، وفي الميزان الاجتماعي، حتى في الميزان العلمي؟ إنهم — كما اعتقد — لم يبلغ عددهم ألفين... إنه يقال لهذه المجموعة الصغيرة التي قام عليها الإسلام، وقامت على أعناقها رسالة الإسلام... فثبت بذلك أن المسلم بقيمته لا بقامته".

2 — الوسطية في العبادة:

كان الشيخ أبو الحسن رحمه الله حريصاً على اتباع السنة في كل شيء، وأهمها العبادة، فكان يحرص على التقيد بأداب الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان عليه الصحابة. ونحن نعرف أن بلاد الهند بيئة ترعرع فيها الغلو في العبادات، كما نقلنا سابقاً عن العلامة سليمان الندوي، وأن بيئة مثل هذه كان يسهل أن يجرّ فيها الإنسان إلى الغلو والمغالاة، وقد أصاب ذلك الغلو حتى بعض الفئات المسلمة، ولكن حرص الشيخ أبي الحسن على الالتزام بالسنة حماه من الوقوع في الغلو، ومن هنا ألف كتابه الشهير: (ربانية لا رهبانية)، ومعلوم أن جذور الغلو كانت قد بدأت في العهد الأول للإسلام، كما هو واضح في حديث الرهط الذين جاءوا إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخرجوا بها فكأنهم تقالوها، ثم قالوا: أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فقال أحدهم: أما أنا فأقوم الليل ولا أنام، وقال الثاني: وأما أنا فأصوم الدهر لا أفطر، وقال الثالث: وأما أنا فأعتزل النساء، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أما والله إني لأحشاكم الله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني). (متفق عليه).

وهذا نص مما يقوله الشيخ أبو الحسن رحمه الله، وهو شديد الدلالة على ما نريد: (إنني لأح على منهاج خاص من التزكية درج عليه جيل من أجيال المسلمين، واشتهر في الزمن الأخير بالتصوف — من غير حاجة إلى ذلك — فقد كان في كلمات الكتاب والسنة ومصطلحاته غنى عنه، ولا أبرئ طائفة ممن تزعم هذه الدعوة وتضطلع بها، من نقص في العلم والتفكير، أو خطأ في العمل والتطبيق، ولا أعتقد عصمتها، فكل يخطئ ويصيب، ولكن لا بد أن نملأ هذا الفراغ الواقع في حياتنا ومجتمعنا، ونسد هذا المكان الذي

كان يشغله الدعاة إلى الله والربانية والمشتغلون بتربية النفوس وتزكيتها وتجديد إيمانها وصلتها بالله والدعوة إلى إصلاح الباطن، والعناية بالفرد قبل المجتمع. (5)

فهذا النص شديد الأهمية، فهو بالإضافة إلى دعوته إلى الوسطية في العبادة، يدعو إلى أمر بالغ الأهمية، وهو عدم الوقوع في فخ مصطلحات مستحدثة لا تستوجبها الحاجة، والاكتفاء بالمصطلحات القرآنية، ذلك بأن العدول عن المصطلح القرآني إلى سواه هو بداية الزلل، لأن كل مصطلح يجر من ورائه دلالاته التي قد تبعد قليلا أو كثيرا عن دلالات المصطلح القرآني. وهكذا فإن اختيار مصطلح التصوف، بدلا من المصطلحات القرآنية، كالتزكية والربانية، كان مدخلا لكثير من التصورات، بل والسلوكات أيضا، التي ما أنزل الله بها من سلطان، ولم تكن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

3 — الوسطية في الموقف من الثقافة الغربية:

كان الشيخ أبو الحسن رجلا متمكنا من عدد من اللغات، منها الأوردية والعربية والفارسية والإنجليزية، واطلع على الثقافات والآداب التي تضمنتها هذه اللغات اطلاع خبير، وقد مكنته الإنجليزية من معايشة الفكر الغربي معايشة تسمح له بتقويم ذلك الفكر والحكم عليه. ونحن نعرف أن الطبقة المثقفة في البلاد الإسلامية قد انقسمت انقساما مريعا في الموقف من الحضارة الغربية، فهنالك من دعا إلى أن نأخذ الغربية بنجرها وشرها، وحلوها ومرها، إذا أردنا لأمتنا الخير والنهضة، وهذا ما نادى به طه حسين في كتابه: (مستقبل الثقافة في مصر)، ومنهم من انكب على نفسه، ودعا إلى أن نصمم آذاننا عما حولنا من حضارة الغرب، رغم ضحيج آلة هذه الحضارة المصمة للآذان، ومن هؤلاء الأستاذ أنور الجندي رحمه الله، وبقيت طائفة ثالثة في حيرة من أمرها، لا تعرف ما تأخذ وما تدع من هذه الحضارة. وثلة من العلماء والدعاة والمفكرين جمعوا المعرفة بحضارة الشرق وحضارة الغرب، فدعوا إلى التجديد على بصيرة، وجعلوا الوسطية هاديا ونصيرا، وقد كان الشيخ أبو الحسن من أبرز هؤلاء، وقد ساعده على ذلك النشأة الحسنة، وكونه تربى في كنف أبيه العلامة عبد الحمي الحسيني الندوي، ثم في رعاية أخيه الدكتور عبد العلي الحسيني الندوي، الذي كان هو أيضا من المطلعين على الثقافتين الإسلامية والغربية، فكان أثره على أخيه عظيما.

ولعل بعضهم يرى أن الجمع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية كالجمع بين الأضداد: وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأعجب من أن أجمع الجَدَّ والفهما ولكن الجمع بين الأضداد لم يكن عزيزا على همة أبي الحسن رحمه الله. يقول متحدثا عن سنوات التكوين: (لقد ولدت في بيت كان موضوعه الحبيب بل هوأيته التأليف في سير الرجال وطبقاتهم، وتراجم العلماء وأهل الفضل، وخاصة الذين أُنجبتهم أرض الهند... قد نشأت بصفة خاصة على حب التفنن في الفضائل والجمع بين الأشتات بل الأضداد من الفضائل الإنسانية وأنواع العلوم والمعارف والآداب والثقافات وعلو الهمة، والقدرة الفائقة على التنسيق بينها، وتسخيرها للوصول إلى غاية مثلى وخدمة العلم والدين، حتى لو أدى ذلك إلى المشاركة في علوم وآداب يتحاشى عنها كثير من علماء الدين، ويعدونها من ضالة الآداب وبراية الآداب.) (6)

وعلى هذا لم يكن من المستغرب أن يقف الشيخ أبو الحسن موقفا عدلا من الحضارة الغربية. (7) إنه الموقف الذي يستوحى الآية الكريمة: (ولا يجرمكم شأن قوم على الا تعدلوا، اعدلوا هو اقرب للتقوى) "المائدة:8". وقد كان أبو الحسن رحمه الله شديد الإعجاب بمحمد إقبال، فلم يكن غريبا أن يلتقي الرجلان العظيمان في الموقف من الحضارة الغربية، فهي حضارة لا تخلو من خير ونفع، وإن كان شرها أكبر من خيرها، وضررها أكثر من نفعها (8). ولقد عاش محمد إقبال في الغرب، ولا سيما في بريطانيا والمانيا، حيث نال من هناك شهادته العلمية العليا، وقد شبَّه الحضارة الغربية بنار النمرود. ولكنه يحمده الله تعالى على أن نجاه من هذه النار كما نجى إبراهيم من نار النمرود من قبل.

وكذلك هو شأن الشيخ أبي الحسن، فقد اطلع على الحضارة الغربية واستفاد مما فيها من عناصر الخير، إلا أنه لم يفتن بها، بل كثيرا ما حذر من أحابيلها. وهو يدعو إلى عودة الشباب المسلم المثقف إلى الإسلام بمعناه الواسع من جديد، وتحريرهم من رق الفلسفات الغربية التي آمن بها كثير منهم بوعي ودراسة، وأكثرهم بتقليد وتسليم، ويقوم في عقولهم أسس الإسلام من جديد ويغذي عقولهم وقلوبهم. (9)

على أنه ظل راغبا في إقامة جسر التعاون والتفاهم مع هذه الحضارة، ومن هنا كان إنشاء المركز الإسلامي في جامعة أكسفورد، وذلك في شهر أكتوبر من عام 1985، وهو المركز الذي جعل من بين أهدافه التعريف بحقيقة الحضارة الإسلامية في الغرب، وإحداث تواصل فعال بين الشرق والغرب. وقد طالما أثنى الأمير شارلز، أمير ويلز ولي عهد بريطانيا، على جهود هذا المركز. وقد اختير أبو الحسن لرئاسة المركز، وبمساعدة الدكتور فرحان نظامي، وقد ألقى سماحته خطابا في افتتاح المركز، وكان مما قال فيه: "إن قيام هذا المركز الإسلامي في جامعة أكسفورد مبشر بالخير، تنفتح به أبواب جديدة من المعرفة الصحيحة والتفاهم، وتكشف سبل جديدة للبحوث والدراسات العلمية، لا بد من تعميم الوعي الصحيح لما قدمه الإسلام من دروس الإنسانية والسعي لرفع الإنسان نحو الذروة السامقة والقمة العالية، كانت البشرية تمنّ تحت وطأة الدمار والهلاك، وكادت تلفظ أنفاسها الأخيرة، فقام النبي صلى الله عليه وسلم، ونفخ فيها روح الحياة وبعثها من جديد، وإن التقدمات الهائلة التي أحرزها الإنسان في القرون التالية، تدين لهذا الجهاد والقائد العظيم في سبيل إنقاذ البشرية، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الرائد لهذا الجهاد والقائد لهذا الكفاح، ولولا قيامه بهذه الجهود للأخذ بيد البشرية، لما كان لهذه الجامعات والمؤسسات من عين ولا أثر". (10)

4 — الوسطية في الأدب:

منذ وقع الاحتكاك في العصور الحديثة بين الحضارة الغربية والعالم الإسلامي، انطلقا من حملة نابليون على مصر عام (1789م) حتى استعمار فرنسا الجزائر عام (1830م) ودخول الإنجليز إلى الهند وإعلان الملكة فكتوريا نفسها إمبراطورة على الهند عام (1877م)، بدأت الفكرة الغربية تتغلغل في العالم الإسلامي، ومن ضمن ذلك الأدب، وصار الشرق الإسلامي موضوعا أثيرا لدى أدباء الغرب، حيث كتب الأديب الإنجليزي روديار كبلنج: (كتاب الأدغال)، مستلهما وجوده في الهند، وكتب الشاعر الألماني غوته ديوانه: (الديوان الشرقي للشاعر الغربي)، كما كتب الشاعر الفرنسي فكتور هيجو ديوانه: (الشرقيات). وكما تباينت مواقف أدباء الغرب في كتاباتهم تلك بين الإعجاب والاستهجان، كذلك بدأت تتشكل مواقف متباينة داخل كتاب العالم الإسلامي وأدبائه

تجاه الحضارة الغربية، بعامية، والأدب الغربي بخاصة، فهناك من ظل متشبثاً بالثقافة القديمة رافضاً كل جديد، ظنا منه أن ذلك يمثل نوعاً من التشبث بالأصالة وحفاظاً على الهوية والحصانة ضد الاقتلاع الحضاري، بينما انسلخت طائفة من أدبائنا وأقبلوا — هروباً من تقليد القديم — يقلدون كل ما ظهر في الغرب من المذاهب والاتجاهات والأفكار.

وكما عهدنا الشيخ أبا الحسن، وهو الأديب المرفه، المتعدد المواهب واللغات، ينحو نحو الوسطية في المواقف كلها، وجدناه يتخذ في الأدب موقف الوسطية الذي يبحث عن المفيد والجميل، ولا يهجم في ذلك — إن أرضى الحق — أن يغضب المحافظين والحاتئين على السواء. بل لقد كانت له اجتهادات خاصة و متميزة في مجال الأدب، ومنها أنه كان سباقاً إلى تجاوز النظرة الاستشراقية إلى الأدب العربي، حيث فتح عيون الناس على أن الأدب العربي ليس محصوراً فيما كلف به المستشرقون، وقدموه لنا في تواريخهم لأدبنا (9)، بل لقد بين لنا أن عيون الأدب العربي ليست وقفاً على تلك المظان المذكورة والمشهورة، وإنما أجمل الآداب وأصلدها وأبينها وأروعها ليست مبنوثة في كتب الآداب، بقدر ما هي كامنة في كتب تبلو لأول وهلة أبعد ما تكون عن الأدب، وذلك مثل كتب السيرة، وكتب التاريخ، وحتى كتب الأصول والفقه. فقد نبه مثلاً، خلال اختياره عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق، على نظرة جديدة للأدب العربي، عندما وقف عند نص أدبي رائع أورده كتب السيرة، وهو حديث كعب بن مالك، رضي الله عنه، وهو من الثلاثة الذين خلفوا.

كما أن كتابه: (مختارات من أدب العرب) دل على ذوق أدبي رفيع وحس مرفه ونظر جديد إلى الأدب العربي. وقد أشاد الأستاذ علي الطنطاوي رحمه الله بهذا الكتاب ومنهجه، فكان مما قال: "ولقد كنت أتمنى من قلم من نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذي حشرناهم فيه إلى فضاء الحرية، وإلى ضياء النهار، فلا تقتصر في الاختيار على (وصف الكتاب) للجاحظ، وهو جمل مترادفة لا تؤلف بينها فكرة جامعة، ولا يمددها روح، ولا تخالطها حياة، وعلى الأعيب ابن العميد، وغلاطات الصاحب، وهندسات القاضي الفاضل، فننفر التلاميذ من الأدب، ونكرهه إليهم!!

وكنا نقول لهم: إن البيان الحق عند غير هؤلاء، وإن أبا حيان التوحيدي أكتب من الجاحظ، وإن كان الجاحظ أوسع رواية وأكثر علما، وأشد تصرفا في فنون القول، وأكبر استاذية، وإن الحسن البصري أبلغ منهما، وإن ابن السماك أبلغ من الحسن البصري، وإن النظر فيما كتب الغزالي في الإحياء، وابن خلدون في المقدمة، وابن الجوزي في الصيد، وابن هشام في السيرة، بل والشافعي في الأم، والسرخسي في المبسوط، أجدى على التلميذ وأنفع له في التأدب من قراءة حماقات الصاحب ومخرقات الحريري وابن الأثير." (11)

في حوار أجرته مجلة المشكاة المغربية مع سماحة الشيخ الندوي سألناه إن كان يصح أن نطلق مصطلح (الأدب الإسلامي) على النصوص الأدبية التي ينتجها الغربيون من غير المسلمين، وتتلاقى تصوراتها مع التصور الإسلامي، (وذلك أمر أثار جدلا بين أهل الأدب الإسلامي منذ أقدم الأستاذ محمد قطب على تقديم نماذج من الأدب الغربي في كتابه عن منهج الفن الإسلامي) فقال الشيخ : لا، فقلنا : إذن ما التسمية التي تقترحها لذلك الأدب؟ فقال دون تردد: (أدب صالح). هذا هو المقياس إذن، وهذا هو الميزان الذي يزن به الشيخ أبو الحسن الأدب، سواء أكان شرقيا أم غربيا: الأدب الذي ندعو إليه، والأدب الذي ندعو إلى قراءته والاستفادة منه، يجب أن يكون صالحا. الصلاح والجودة هما سر تقدم الأدب. ومن هنا لم يكن الشيخ أبو الحسن مناصرا ولا عدوا للأدب، بالنظر إلى منشئه، بل بالنظر إلى الأدب نفسه. وهو يشرح لنا سر إعجابه بإقبال فيقول: (إن أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو: الطموح، والحب، والإيمان، وقد تجلّى هذا المزيج في شعره وفي رسالته أعظم مما تجلّى في شعر معاصر، وهي تندفع اندفاعا قويا إلى كل أدب ورسالة يبعثان الطموح وسمو النفس، وبعد النظر والحرص على سيادة الإسلام وتسخير هذا الكون لصالحه، والسيطرة على النفس والآفاق، ويغذيان الحب والعاطفة، ويبعثان الإيمان بالله والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبعقريّة سيرته، وخلود رسالته، وعموم إمامته للبشرية كلها.) (12)

وقد رأينا من قبل كيف كان ميالا إلى المشاركة في علوم وآداب يتحاشى عنها كثير من علماء الدين، بل كثير من علماء الأدب أيضا. ففي يناير من عام 1986م، وفي ندوة العلماء، دار العلوم، بلكنو، أسست رابطة الأدب الإسلامي، وكان بعض مؤسسيها ممن

يعادي الشعر الحر، الذي ظهر في العالم العربي في منتصف القرن الماضي على يد نازك الملائكة، وكان يسمى ذلك الشعر (الشعر المنفلت) ويعتبره مؤامرة على تراثنا. وقد أخبرني بعض أدباء الهند، ومنهم الأستاذ عبد النور الندوي رحمه الله، أنه ظهرت هذه الحركة في الهند أيضا، وذلك بعد الجيل الذي خلف جيل إقبال. ولكن الشيخ أبا الحسن لم يكن عدوا لشيء من ذلك ما دام يحمل رسالة سامية، أو بتعبير آخر: (ما دام صالحا)، فقد يستمع لذلك الشعر، بل ويطرب له أيضا، ولذلك انضم كثير من الشعراء الإسلاميين الذين يكتبون الشعر التفعيلي إلى رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وتقوت بهم، ومنهم على سبيل المثال، ممن أفضى إلى ربه: الشاعر حسين علي محمد والشاعر عبد المنعم عواد يوسف من مصر، والشاعر محمد بنعمارة والشاعر فريد الأنصاري من المغرب، رحمهم الله جميعا.

وإذا كان الشيخ أبو الحسن يرحب بالأدب الصالح مهما كان مصدره، فإنه في مقابل ذلك كان محاربا للأدب المنحرف مهما كان مصدره. ومما لا ريب فيه أن الآداب في العالم الإسلامي في العصور الحديثة قد أصيبت بلوثة الفساد، نتيجة تأثرها بالفلسفات والمذاهب الغربية المنحرفة، ففي العالم العربي مثلا ظهر عندنا الفكر الوجودي، ممثلا في بعض الشعراء، من أمثال صلاح عبد الصبور، وفي بعض المنابر الثقافية، من أمثال مجلة (الآداب) البروتية، كما وجدت المذاهب اليسارية، بمختلف اتجاهاتها، كالشيوعية والفوضوية، مرتعا خصبا في بلادنا، واغترب الأدب الإسلامي في بلاده، مما دعا الشيخ أبا الحسن إلى النهوض بمواجهة ذلك الانحراف، وكان من بين تلك الوسائل التي كان يواجه بها الانحراف، رابطة الأدب الإسلامي العالمية. يقول في (مسيرة حياة): " إن الكاتب بتأثير الأسرة والبيئة وانتمائه إلى طبقة خاصة ومؤسسة خاصة (ندوة العلماء) لم يغفل.. الميول والترعات الأدبية السائدة في عصره، ودراسة الحركات الأدبية واستعراض آثارها الإيجابية أو السلبية على النشء الجديد وأوساط المشتغلين بالعلم والأدب، والتفرس لأخطار تحرر الأدب والشعر والفكر والبحث عن ربة الدين والأخلاق، بل معارضتها للدين ومجاهتها له، ونتائجها الخطيرة المريعة والقيام بمقاومة هذه الفتنة، وتنبية الناس لها، لم يغفل المؤلف شيئا من ذلك، وهذا الذي حمّله على قبوله لمسؤولية (رابطة الأدب الإسلامي) وراثته". (13)

لم يكنف الشيخ أبو الحسن بوصف ما آلت إليها الآداب من الانحدار والتردي، بل كان شأنه في ذلك شأن النطاسي الخبير الذي يبحث عن أصل الداء لاجتثائه، والكشف عن الدواء الناجع. وهكذا ففي ندوة من ندوات رابطة الأدب الإسلامي بالهند، وصف أصل الداء، مبينا أن انحراف الأدب كان نتيجة لانحراف الفكر، فقال: " إن السبب الأكبر والأساسي لانحراف الغرب وضلاله وزيغه واختلاله، هو حرمانه من نور النبوة والرسالة، فإن النبوة وحدها هي التي تخرج الإنسان من الظن والتخمين، وتبلغه إلى الإيمان واليقين. ولم يزل الغرب رغم جميع فتوحاته وانتصاراته المادية، وفي رحلته الطويلة في العلم، محروما من النبوة." ثم صرح بعد ذلك "بأن القيادة العلمية والفكرية والأدبية للعالم كله من واجبات المسلمين، وهي حق للأمة الإسلامية، وماذا سيجر من شقاء وبلاء لو تخلت الأمة عن منصبها ودورها القيادي، وما تلحق بها كذلك من خسائر وأخطار" (14)

ولن يستطيع أدباء الإسلام أن ينهضوا برسالتهم الملقاة على عاتقهم إلا باسترجاع روح النبوة، تلك الروح التي تلبست محمد إقبال فأبدع إنما إبداع في شعره الحي الذي أيقظ القلوب، وأحيا النفوس وأهلب المشاعر:

" لقد أصبح العالم من غزو الإفرنج وظلمه خرابا يبابا، فقم يا بني الحرم، لبناء العالم من جديد، قم من السبات العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته". (15)

5 - الوسطية في الدعوة:

سخر الشيخ أبو الحسن حياته كلها للدعوة إلى الله، وهو يستحضر قوله تعالى: "ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك" (آل عمران:159)، فكان لين الجانب مع الأولياء، دمث الخلق مع الأعداء، عاش في بيئة تضم الملل والنحل المختلفة، هي الهند، فتوجه بدعوته لا إلى المسلمين وحدهم، بل إلى عموم سكان الهند. وقد أدرك أن المسلمين ولاسيما بعد انفصال باكستان عن الهند، صاروا من الأقليات (ويسمىها أبو الحسن "الأقلية الكبيرة" كما في مسيرة الحياة: 3\63)، في مقابل الهندوس الذين ظهرت فيهم حركات متطرفة تسعى إلى طرد المسلمين من الهند، فخاطب جميع الفئات، باعتبار المصلحة الوطنية، ومن هنا فإنه كانت هناك حركة في العالم العربي والإسلامي، الذي لم يشهد تعدد المذاهب

والأديان، تهاجم العلمانية، وترى أن دعاة العلمانية يريدون فصل هذه الأمة عن دينها ومقوماتها، ولكن الشيخ أبا الحسن كان يرى أنه لا سبيل للمسلمين في الهند إلى المحافظة على كياناتهم إلا العلمانية، وهو ما لم يستوعبه بعض الدعاة، ولا سيما في العالم العربي، أو لم يستوعبه على الأصح إلا في هذه الفترة التي تسمى بفترة الربيع العربي. أما الشيخ أبو الحسن فقد أعلن بكل وضوح، وفي أكثر من مناسبة، وفي أكثر من موضع، أنه لا سبيل إلى المحافظة على الوجود الإسلامي في الهند إلا العلمانية. ففي 6 أكتوبر 1991 انعقدت ندوة برئاسته، تحت إشراف جمعية المثقفين المسلمين لعموم الهند في مدينة لكنؤ، ألقى فيها كلمة، وضرب مثلا برجل ثري ورث ولده حديقة، وأوصاه بعدم اقتلاع شجرة بعينها، فلم يحفظ الوريث الوصية، فلدغته حية. ثم قال: "وهذه الحكاية تنطبق على العلمانية، وهذه أهميتها في الهند، فلو اقتلع أحد هذه الشجرة التي تصون البلاد، وتحفظها من الولايات الكثيرة، واقتلعت معها شجرة (اللاعنف)، لابتلعت الهند حيات التطرف والإرهاب والعصبيات والطائفية، ولن يبقى شيء". (16)

وانتصارا لفكرة دعوة عموم أهل الهند، بغض النظر عن الدين أو المذهب، أنشأ الشيخ أبو الحسن حركة مباركة، هي (رسالة الإنسانية) وذلك في عام 1951م، وكان يعقد لها الندوات والمؤتمرات، ولأنها كانت دعوة وسطية كان يشارك فيها وجهاء وأعلام من طوائف غير مسلمة، بل ويتولى رئاسة بعض حفلاتها كبار الهندوس. يقول الشيخ أبو الحسن: "لقد كنت مع نشاطاتي العلمية، وانشغالاتي العلمية والأدبية، ورحلاتي الداخلية والخارجية، لا تزال هذه الحقيقة ماثلة أمام عيني: أنه لا يجوز التغاضي، في البلاد التي قررنا أن نعيش فيها ونسكنها، عن تقدير الوضع الصحيح والترعات الهدامة المثيرة والأخطار المستقبلية، ولذلك كان يستولي علي دائما التفكير في نشر (رسالة الإنسانية)، والقيام بدعوتها على النطاق الواسع، وقد كانت هناك قبل ذلك جولات دعوية في هذا الصدد... وكانت لها نتائجها الطيبة المشجعة، ونظم برنامج جولة في مارس عام 1985م لمنطقة (بنديل كهند)... وكان من خصائص هذه الجولة أن فضيلة الشيخ السيد صديق أحمد البانديوي... كان يرافقنا في السفر، ويحاول جهده في إنجاح هذه المهمة ومساعدة هذه الجولة

بتأثيره الديني والخلقي ومكانته الاجتماعية وشخصيته المخلصة المحببة، فكان يتقدمنا كرائد، وينظم إقامتنا ويضع برنامج الاحتفالات والندوات، وقد رأس الاحتفال في "بنا" أميرها الهندوسي، وأبدى انطباعاته الطيبة... ورأس الحفل في "سيدهي" الدكتور سون سنغ، وهو أخو "أرجن سنغ" كبير الوزراء لولاية مدهية براديش سابقا وحاليا، جاء من "ريوا" لرئاسة الحفل، وأسندت رئاسة الحفل في "ستنا" إلى الدكتور "راهو" رئيس قسم العلوم. (17)

ولقد كانت (رسالة الإنسانية) واجهة من عدة واجهات يشتغل من خلالها الشيخ أبو الحسن، ويبلغ دعوته إلى الله عز وجل.

وقد كان رحمه الله وسطيا في دعوته، سواء أكان الخطاب موجها إلى الطبقات الشعبية أم إلى الطبقات الحاكمة. وإن أسلوب الحكمة المتبع هو الذي أدى إلى إسلام قرية كاملة من المنبوذين. (18)

على أن هناك أمرا مهما نبه عليه الشيخ أبو الحسن، والناس عنه غافلون، وهو كيفية التعامل مع المسلمين، ممن ابتلوا بتبني أفكار هدامة، وممن فتنوا ببعض المذاهب الفكرية والأدبية المخالفة لروح الإسلام، فراحوا يصدرون عنها فيما يكتبون، ويشيرون بها فيما ينشرون، وهم بصفة عامة يحتلون مواقع ذات أهمية كبيرة في الحياة العامة. وهم يمتلكون زمام كثير من المؤسسات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، ويتحركون من خلال كل ذلك لتشكيل الوعي الجماهيري بما يناسب تصوراتهم وأفكارهم.. ولقد وقف بعض دعاة الفكر والأدب الإسلامي من هؤلاء موقفهم من الأعداء، مما ولد رد فعل عنيفا عند أولئك، وراحو يتهمون، ليس المسلمين فقط، بل الإسلام نفسه بتهم التخلف والرجعية والانغلاق والانزالية والتطرف وما إلى ذلك من الأوصاف المخافية لروح الحق. أما أبو الحسن فقد نظر إلى هؤلاء على أنهم مسلمون غافلون، فهم بحاجة إلى من ينبههم ويردهم إلى صفوف الأمة ردا جميلا، وذلك ما لا يكون بالقطيعة معهم، بل بالاتصال بهم، ومخاطبتهم على أنهم جزء من الأمة، وعلى أنهم قوة يجب استثمارها بالشكل الذي يخدم الأمة. يقول: " لا بد من تفكير هادئ عميق، كيف نرد الطبقة المثقفة التي تحتكر الحياة، وتمتلك الزمام، إلى الإسلام

من جديد، وكيف نبعث فيهم الإيمان والثقة بالإسلام، وكيف نحررها من رق الفلسفات الغربية والعصرية ونظرياتها اللادينية؟" (19)

كم كنا سنوفر على أنفسنا من الجهد لو وعينا هذه الدعوة وعملنا بها؟ كم كنا سنربح من الجنود الذين سينضمون إلى صفوف الأمة، بدلا من أن يقوا نهباً للفلسفات الغربية، حتى صار بعضهم (طابورا خامسا) لتلك الفلسفات الغربية، على غير إرادة منه؟ وما حجم الخير الذي كنا سنحنيه لو جادلناهم بالتي هي أحسن، ولم نترلق — كما حدث لبعضهم — إلى مهاوي النفيق والتكفير، فأعنا الشيطان على إخوة هم منا ونحن منهم؟

6 — الوسطية في السياسة:

هذا مجال فيه كثير من المحاذير، ولذلك اعتبر بعضهم، عن إخلاص، أن السياسة رجس من عمل الشيطان، فاجتنبوا كل شيء له صلة بالسياسة، وما علموا أنهم بذلك يعتزلون الحياة نفسها، ولا شك أن الإخلاص هو المنطلق، ولكن الإخلاص ينبغي أن يكون مقرونا بأن يكون العمل صوابا.

أما أبو الحسن فقد كان له في السياسة صولات وصولات، ولكن من منطلق الداعية، لا من منطلق السياسي المحترف. فلذلك كان يلتقي بالزعماء السياسيين والحكام، ويكتبهم، وينصح لهم، ولكن برفق ولين. ولو رجعنا إلى سيرته (في مسيرة الحياة) لتبين لنا عدد الزعماء والرؤساء والملوك الذين التقى بهم ناصحا. (20)

وكان رحمه الله يلخص فلسفته في دعوة الحكام إلى الإصلاح في كلمة طالما كان يرددتها، وهي: "نحن نريد أن يصل الإيمان إلى أهل الكراسي، لا أن يصل أهل الإيمان إلى الكراسي" (21) وقد سمع أبو الحسن هذه الحكمة من أحد حكماء اليمن، والحكمة يمانية، ومنذ ذلك الحين اتخذها شعارا ومنهجاً، حيث وجدت في نفسه قبولا واستجابة وانسجاما مع ما كان يؤمن به، ولأنه المنهج الذي كان يتبعه الإمام السرهندي، وهو الإمام الذي كان أبو الحسن يكن له تقديرا عظيما. (22)

إذا كان صحيحا أن السياسة هي فن الممكن، وإنه لصحيح، فإن أبا الحسن الندوي سياسي من الطراز الأول. فالناس من السياسة أحد رجلين: إما رجل يرى السياسة رجسا

من عمل الشيطان، فهو يعتزها بكل صورها، ويهرب منها أي مهرب، وإما رجل يراها سلما للارتقاء إلى منصب الحكم، وإلى الحصول على جاه دنيوي عارض، وإن رآه عريضا، فهو يأخذها بكل ما تتصف به من ضروب المكر، أو يسعى إلى غايته عن طريق مبدأ ميكيفيللي (الغاية تبرر الوسيلة)، فلا يراعي في ذلك أخلاقا ولا أعرافا ولا قيما.

ولكن هنالك صنفا ثالثا يرى السياسة منهجا للإصلاح، يقوم على الرفق والنصح، ويسعى إلى استنبات النموذج المثالي في الواقع بالحكمة والموعظة الحسنة. فقد كان رجاء ابن حيوة معيناً لعمر بن عبد العزيز على اتباع طريق الإصلاح، والشيخ أبو الحسن من هذا الصنف. وهنا ينبغي أن نذكر بما قرناه، وهو أن الوسطية التي هي فضيلة بين رذيلتين، لا تعني دائما الوقوف في وسط الطريق، بين الظلمة والنور، وبين الخير والشر، بل هي النور والخير، وهي تعني العدل والقسط، فأما طريق حقق لنا العدل، فذلك هو طريق الوسطية، حيث لا مترلة وسطي بين الجنة والنار.

لقد كنت في ريعان الشباب ممن يرى أن القوة — وربما الثورة الدموية — وحدها السبيل إلى تحقيق الغايات، وإصلاح ما فسد من أوضاع الأمة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والخلقية، وكان ذلك من فعل تأثير حياتنا الجامعية التي كانت تسودها شعارات الثورة الحمراء، والعنف الثوري، لذلك وقفت، كما وقفت معظم الحركات الإسلامية، مع الثورة الإيرانية التي قادها الخميني، باعتبارها ثورة إسلامية. ولكنني عندما التقيت بشيخنا أبي الحسن، تعلمت منه شيئا كثيرا. وقد كان موقفه واضحا من الثورة الإيرانية، ورؤيته ثاقبة، في وقت ضلت فيه العقول والأحلام، وزلت فيه الأقدام. لقد قال لنا رحمه الله عندما لقيناه في لكنهو عام 1986، وقد سألتناه: ما الذي يمنع من مؤازرة الثورة الإيرانية؟ فكان جوابه: إذا كنا سننتصر لها لأمر واحد فقط، وهو أنها أعلنت الوقوف ضد الاستكبار العالمي (وهذه عبارته رحمه الله تعالى) فما الذي يمنعنا من الوقوف مع كوبا مثلا، وهي تقف ضد الاستكبار العالمي منذ عقود؟ إن الميزان عندنا هو العقيدة. فهل هي حقا ثورة إسلامية؟ في تلك الفترة كان رحمه الله قد كتب كتابه القيم: (صورتان متضادتان: السنة والشيعة)، وقد بين في هذا الكتاب الفرق الجوهرية بين السنة والشيعة، وقد كان بعض أهل السنة من

المناصرين للثورة الإيرانية يتذرع ويقول إن الخلاف بين الطائفتين خلاف تاريخي فقط، ولم يعد له وجود الآن، لأن المصحف الذي يوزع في طهران اليوم هو نفسه الموجود في بقية أنحاء العالم. ولكن الأيام، ولاسيما في الأحداث الأخيرة التي يشهدها العالم العربي، أثبتت أن الخلاف أعمق من أن يكون تاريخياً(23).

وعلى الصعيد العملي، أشار الشيخ أبو الحسن، في كلمة ألقاها في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي العام الثالث، الذي انعقد في 1987 إلى أن (من إعجاز القرآن أنه أشار إلى نوع جديد من الهجوم والغزو على البلد الأمين، والبيت العتيق، لم يجربه العرب في العصر الجاهلي وفي زمن البعثة، وهو حرب المؤامرات والدعايات والدعوة إلى إثارة الفتن)، ووضح ذلك قائلاً: (وأشرت في ذلك إلى الاستراتيجية الإيرانية العقائدية والسياسية، التي ظهرت طلائعها في موسم الحج الماضي، وقلت: إن العرب لم يكونوا يعرفون إلا الحرب السافرة والهجوم العلني، والذي كان من نماذجه غزو أبرهة بجيشه مكة، الذي جعله الله هباء منثوراً، أما إرادة الإلحاد بظلم فلم يعرفها العرب، وأندر بها القرآن الكريم وهدد عليها بقوله: (نذقه من عذاب اليم)، وهو مصير هذه المخططات الرهيبة الدقيقة التي يفكر فيها المقنعون بالإسلام، الهاتفون بقيام دولته ومجده كذبا وزورا". (24)

يقول: د. محمد أكرم الندوي: "لم يهتم الشيخ الندوي بالسياسة كأحد لاعبيها فقط، ولكنه عاش الأوضاع السياسية للمسلمين في الهند والعالم العربي والإسلامي يتأثر بها ويستوحىها، ويقوم بإسداء التوجيهات والنصائح للمسلمين.

يرى الشيخ الندوي أن السلطة نتيجة لا غاية، وكان يرشد الجماعات الإسلامية إلى أن تجعل غاية سعيها وعملها الدعوة إلى الله، كما كان يؤكد أن الهدف من إقامة حكم إسلامي هو الهداية وليس الجباية، وكتابه (التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات المودودي وسيد قطب) يترجم عن موقفه من الفكر السياسي الإسلامي" (25).

وللشيخ أبي الحسن رسالة "بين الجباية والهداية"، وهي رسالة كتبها في الحجاز. قال رحمه الله: "كتبت هذه الرسالة بعضها في مقري وبعضها على الحافلة التي تقلني مع الركاب من مكة إلى جدة، وبعضها على الميناء في انتظار الباخرة، ثم سلمتها إلى الشيخ عبد الله

البيباوي المقيم في مكة المكرمة، الذي بلغها إلى الشيخ عمر بن الحسن، وعلمت فيما بعد برسالة منه إلي انه قرأها على الأمير سعود". (26) وهذه الرسالة كان من مبادئها وأصولها الدعوة إلى إصلاح ما بدأ يظهر في البلاد العربية، ولاسيما في جزيرة العرب، من فساد. يقول: "لقد لاحظت في إقامتي الطويلة في الحجاز — في تجربة دارس للقرآن ونهم بالتاريخ — المرحلة الانتقالية التي هي من أدقّ مراحل الشعوب والبلاد، وكيف بدأ البلد يحذو حذو البلد النامي الذي تشيع فيه الرفاهية والرخاء، وتتغير أوضاعه بسرعة، ويقفو أثر بلاد مصر والشام والعراق التي تتزعم التحرر والانطلاق، ويقلد البلدان الغربية التي لا وازع لها من خلق ولا دين، وكل ذلك إنما هو نتيجة تخلي هذه البلاد عن تلك الدعوة والحركة التي قامت لإصلاح العقيدة وإشعال العاطفة الدينية، فتحقق بفضلها ما لم يكن يتصور، وأصبح بها المستحيل ممكنا، فقامت دولة تستطيع — إذا أراد الله — أن تعيد التاريخ على أعقابها، وتحقق من تكوين المجتمع الإسلامي المثالي ما كان يحلم به المعينون بالإسلام، والذي هو من أشد حاجات العصر". (27)

وهكذا نجد أبا الحسن دائما يبشر ولا ينفّر، ويُطمعُ من يتحدث إليه من الحكام في أن يظطلع بمهمة إعادة مجد الإسلام. ولكن هذا لا يمنعه من أن يحذر من مغبة الانزلاق إلى الشهوات، والانحراف عن منهج الله تعالى، والركون إلى الترف والإسراف، والجحود بنعمة الله، فإن ذلك من أهم أسباب زوال النعم، وإحلال النقم. يقول متمما كلامه عن أرض الحجاز: " ولكنها منيت — على مرّ الأيام — بمشاكل ومحن، تمنى بها الحكومات الناشئة، من ضعف الدعوة والحسبة الدينية، وفقد القدوة الصالحة، وسيطرة الدوافع الاقتصادية والاستغلالية على الجهاز الإداري، وما قدر الله أخيرا من التضخم المالي، والعتور على منابع الثروة وأسباب الرخاء، فكانت تلك نتائج طبيعية منطقية نفسية، يقررها القرآن في إنجازهِ وإعجازه، ويشهد به تاريخ الحكومات والمجتمعات في حدوده وأسلوبه". (28)

لعله يتبادر إلى الذهن أن هذه النصائح التي كان الشيخ يقدمها إلى حكام الحجاز، وينتقد من خلالها مظاهر التغريب والانحراف التي بدأت تفرض سلطانها على تلك البلاد، قد تجعله مائلا في مواقفه السياسية إلى خصومها، مثل ما حدث لغيره، عندما وقعت كارثة

احتلال الجيش العراقي للكويت. فقد سارعت جهات عدة، حكومية وغير حكومية، إلى مساندة حاكم العراق آنذاك، وكان من بين هذه الجهات منظمة التحرير الفلسطينية، وكذلك كان شأن بعض الحركات والشخصيات الإسلامية (29)، وزلت الأقدام مرة أخرى، وزاغت الأفهام، ولكن الشيخ أبا الحسن وقف موقف الحكيم، مستنكراً ما سيجره ذلك الموقف الأليم على الأمة من الهزائم والمصائب المنكرة. فقد اعتبر الغزو العراقي للكويت مأساة، "نكس رأس الملة الإسلامية بكاملها" (30)، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يصور ما آلت إليه الأمور في دول الخليج من انهيار في الأخلاق، وانغماس في حياة الترف، حيث أشار إلى حياة الترف والبذخ، ودعا إلى هجرها. (31). وفيما يلي بعض مما كتب في سيرته عن ذلك الحادث الأليم: "وقصرت في المقال الذي قدمته في هذا المؤتمر على الإشارة إلى هذا الغزو اللاديني واللاخلقي واللامبدئي، الذي جاء في غير أوانه، وفي غير مكانه، وبدون أي مبرر له، والذي يتنافى مع الضمير الإنساني، ومبادئ الأخلاق العامة، والقوانين الدولية، فضلاً عن التعاليم الإسلامية السامية النبيلة، وأكدت بالإضافة إلى ذلك على ضرورة إيقاظ الوعي الديني، وإنشاء الحركات الإصلاحية، وأشرت إلى حياة البذخ والترف، ودعوت إلى هجرها."

وأضاف قائلاً: " ولم يكن يناسب لي في هذا الوقت القصير، وفي هذا الجو الذي يسوده الحزن والكآبة، وفي هذا البلد الذي يملأ أرجاءه القلق والاضطراب — أن أتعرض لنقد المجتمع الذي يوجد فيه العالم العربي والإسلامي، ولاسيما المملكة العربية السعودية، من الناحية الدينية والخلقية، والحديث عن الواقع بالتفصيل والصراحة، أو أشير إلى مواطن الضعف في الحياة لهذه الدول العربية الإسلامية، لأنه يزيد العالم العربي ألماً، ويكون بمثابة إثارة جرحه وآلامه، ويرير للمعتدي اعتدائه، وللمؤيدين تأييدهم، وقد كنت جربت ذلك في بلادي". (32)

هكذا إذن يتبين كيف أن الشيخ أبا الحسن الندوي كان في قلب الأحداث السياسية، يعيشها، ويسهم في توجيهها، ويدعو إلى ما يصلحها، ويعين الذي يريد الإصلاح على ما

يريد، ويحذر من مغبة الفساد والانحراف، وتلك هي مهمة الداعية المحتكم إلى الوسطية، والمتصف بالحكمة. (ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) "البقرة: 269".

خاتمة:

تتعدد مناهج الحركات الدعوية، وتباین طرق إصلاح المصلحين، إلا أنه لا يماري أحد من أهل الحق والخير في أن الوسطية هي الطريق اللاحب، وهي المنهج الواضح الذي يعبر أصدق تعبير عن روح الإسلام.

ولكننا عند التطبيق العملي قد نجد بعضا من التباين بين الدعاة أو الحركات. وعلى الرغم من الإقرار بشمولية الإسلام، إلا أن هنالك من قد يغلب جانبا على جانب، كأن يغلب الجانب الفكري التنظيري على الجانب العملي التطبيقي، فنجد مثلا تضخما في الأنشطة العامة، وضمورا في الجانب التعبدی، أو نجد عناية فائقة في السمات، وتساهلا في الروح، فقد يجدئك المرء باستفاضة عن مقومات الفكر الإسلامي، ثم تراه يتجر في سلوكه إلى ما ينافي روح الإسلامی، كالوقوع في الغيبة أو النميمة، وهو لا يكاد يرى أن ذلك شيء جليل.

وبعض الحركات الإسلامية تقصر عملها على التربية الروحية، وترى العناية بالجانب الفكري أو السياسي من فضول الاهتمامات، وأخرى ترى الإسلام كله في الخدمات الاجتماعية لا تعداها. صحيح أن هنالك من يرى — عن حق — أن الشمولية لم تتأت إلا للجيل الأول من الصحابة، وأن الشمولية اليوم لا تتحقق إلا من خلال أعمال كل العاملين للإسلام، إذ هذا يعنى بالروح، وذاك يعنى بالفكر، والثالث يعنى بالجمال.. وهكذا يكمل بعضنا بعضا.. ولكن بعضا ممن آتاهم الله الحكمة عرفوا كيف يتحققون بتلك الشمولية، مع الاحتكام إلى الوسطية في كل جانب من جوانب حياتهم، ولعل هذا ما سعينا إلى تبيينه من خلال شخصية الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله تعالى، بالوقوف على العناصر الستة التي مثلنا بها على هذا الأمر، وعسى أن يكون قد تحقق بعض مما التمسناه غاية، والله الموفق للصواب.

- (1) الرسالة المحمدية، للسيد سليمان الندوي، دار القلم، دمشق، 2005، ص. 240
- (2) ذلك أمر شهادته بنفسي، على مدى السنوات التي عرفت فيها الشيخ الندوي رحمه الله. فقد كنا نلتقي، في مؤتمرات رابطة الأدب الإسلامي، في تركيا والمدينة المنورة ومصر وغيرها، وكنت أنا أمين الرابطة العام، فكان يؤثر الزهد والتواضع ومرافقة المساكين. وأذكر أنه في المدينة المنورة كنا نزل في فندق من فنادقها، وكان هو يؤثر مرافقة فقراء الهند في مساكنهم، فإذا كان وقت الاجتماع التحق بنا. ورغم أنه كان يتزل ضيفا على رجل اسمه محمد نور عبد الغني نور ولي، وذكره في مسيرة الحياة (393/1)، وقال عنه: (مضيفنا القديم)، وكان الرجل صاحب فندق، إلا أن الشيخ أبا الحسن كان يفضل مساكن أهل الهند المتواضعة. فكان بذلك يحقق ما يريد من العيش في تواضع، ويمكن أولئك الذين يتزل ضيفا عليهم من الاستفادة من علمه وعمله، إذ العلم عنده مقترن بالعلم، امتثالا لقوله تعالى: (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين يعلمون، إنما يتذكر أولو الأبواب) "الزمر:9"، فالعلماء حقا هم الذين يتوجهون إلى الله عز وجل في جوف الليل بالتضرع والقيام.
- (3) مما روى لي بعض من لا أقم ان الشيخ أبا الحسن كان مدعوا في بيت من بيوت بعض الوجهاء، فُقِّدَ للضيوف من أصناف الطعام ما لذ وطاب. ولكن الشيخ الحكيم التفت إلى أمر ذي أهمية قصوى، وهو الوقت الذي تقضيه النساء في إعداد تلك الموائد، فالتفت بأدب جم إلى المضيف وقال: "متى تذكر نساؤكم الله تعالى؟"
- (4) أبو الحسن الندوي، الداعية الحكيم، والمربي الجليل: دار القلم، دمشق، 2001، ص. 19
- (5) ربانية لا رهبانية، طبعة دار القلم بدمشق، ص. 26، ضمن سلسلة كتب قيمة، رقم 37، وقد نقل النص د. محمد اجتباء الندوي في كتابه السالف الذكر، ص. 120
- (6) د. محمد اجتباء الندوي، مرجع مذكور، ص. 12 — 13
- (7) كان رحمه الله يكرر على مسامعنا: (إن الشيء من معدنه لا يستغرب)، وكذلك نحن لا نستغرب موقف شيخنا رحمه الله، لأنه جاء من معدنه.
- (8) يراجع الفصل الرابع من كتاب أبي الحسن: (ماذا خسر العالم باخطا المسلمين).
- (9) تنظر رسالة (إلى الإسلام من جديد: 186 — 187) وكتاب د. اجتباء الندوي الأنف الأذكر.
- (10) في مسيرة الحياة: 81/2
- (11) مقدمة كتاب (المسلمون في الهند)، ومخارات من أدب العرب، ص 6، عن كتاب د. اجتباء الندوي الأنف الأذكر، ص 146 — 147

